يوميات خليل السكاكيني
الأحلام الممزقة*

زكريا محمد

صدر الجزء السادس من يوميات الأديب والمربي الفلسطيني خليل السكاكيني، التي بدأ بكتابتها منذ العام ١٨٩٨، ولم يتوقف عنها حتى وفاته في بداية الخمسينات في القاهرة. لكن ما وصلنا منها يبدأ في عام ١٩٠٧، إذ ضاع ما سجله قبل هذا التاريخ. يأخذ هذا الجزء، مثل الجزئين السابقين، شكل رسائل من السكاكيني إلى ولده سريّ، بعد أن قرر أن يستبدل اليوميات برسائل متواصلة إليه.

لم يثر نشر الأجزاء السابقة، للأسف، من مذكرات السكاكيني ما كان متوقعا من نقاش وجدال، ربما لأن النشر حصل في لحظات صعبة وقاسية على الحياة الثقافية والعامة في فلسطين. فقد بدأ صدور هذه الأجزاء في عز الانتفاضة الثانية، وما حملتها من مواجهات. ولعل زمنا سيمضي قبل أن نستثمر، بحق، الثروة الضخمة التي تركها لنا خليل السكاكيني: يومياته ورسائله، التي سيصل عدد مجلداتها عند اكتمال النشر إلى ثمانية. ويمكن لي أن أقول، من دون مبالغة، أن من الصعب فهم النصف الأول من القرن العشرين، أي هذه الفترة العاصفة من تاريخ فلسطين، من دون الرجوع إلى هذه المذكرات، وإلى ما حملته من ملاحظات ثقافية واجتماعية وتعليمية وسياسية. بل لعل من الصعب أن نفهم الانتقال من القرن التاسع إلى القرن العشرين من دون هذه اليوميات. فالسكاكيني، بلغته ونمط حياته وأحلامه، كان ثمرة الطموح التحديثي لفسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر. لقد اعتصر كل طاقة النصف الثاني من هذا القرن، ثم سكبها في الثلث الأول من القرن العشرين.

تهيمن على هذا الجزء من اليوميات، قضية بناء بيت السكاكيني، لكن على خلفية الأحداث التي أدت إلى ثورة ١٩٣٦. فانطلاقا من التحسن المالي لظروف السكاكيني، الذي أسهم فيه بقوة نجاح كتابه للقراءة (الجديد في القراءة العربية)، رأت عائلة السكاكيني أنه آن الأوان كي تبني بيتها المستقل الخاص. يقول السكاكيني في رسالة لولده:

* مقدمة كتاب الجزء السادس من يوميات خليل السكاكيني التي صدرت مؤخراً عن مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز خليل السكاكيني.

(فأنت ترى يا سري أن أحوالنا في تحسن مستمر والحمد لله، ولذلك لا بد أن نشرع في البناء في القريب العاجل. لا أحب أن أرحل أنا أو ترحل أمك عن هذه الدنيا بعد عمر طويل، قبل أن نبني بيتا نسكن فيه).

ويحس القارئ في البدء أن ثمة تعاكسا بين التحسن المستمر لظروف السكاكيني، الذي يجعل بناء البيت هدفه، والتفاؤل الذي يرتبط به، وبين حركة البلد التي تتجه نحو الانفجار. لكنه سرعان ما يكتشف أن بيت السكاكيني الخاص يتحول، بالتدريج، إلى رمز لفلسطين وأحلامها، وإلى رمز لأحلام النخبة الثقافية الجديدة فيها. فحلم عائلة السكاكيني في بناء بيتها الخاص إنما هو حلم فلسطين ذاتها في أن تجد لها مكانا تحت الشمس. يكتب السكاكيني في عام١٩٣٥ لابنه سري:

(أما البيت فنحن جادون في أمره لا هازلون.... وإذا رأيت أن توافينا باقتراحاتك الجديدة والشروط التي يجب أن نستوفيها في البناء فعلت وهمتك عالية. أما الشروط التي خطرت لنا حتى الآن فهي كما يأتي:

١– أن يكون البناء مقاوما للزلزال ٢– أن يكون مقاوما للحريق... ٤– أن يكون بسيطا ٥– أن يكون قابلا للتغيير والتعديل ٦– أن نكون مرافقه من حمام ومراحيض على أحدث طراز ٧– أن يكون منيعا... ٨– أن يكون فيه جهاز للتدفئة... ٩– أن يكون فيه جهاز للتهوية ١٠– أن تكون غرفه واسعة...١٢– أن تكون فيه ردهة واسعة لحفلات الرقص والأعياد والأعراس والاجتماعات).

هذا في الحقيقة بيت رمزي. أنه، بشكل ما، فلسطين المستقبل كما يراها السكاكيني، وكما تراها النخبة الحديثة؛ فهو: بيت مستقل، مقاوم للزلازل، منيع، بسيط، حديث، به مجال للرقص والفرح.

ويضيف في رسالة في العام ١٩٣٧، معلقا على رد فعل الناس على البيت الذي بناه، فرحا مستبشرا:

(لا أستغرب أن يستغرب الناس أني بنيت دارا وأنا الصعلوك العريق في الصعلكة... وقد أنفقت عليها من غير حساب. أما البناء فأعظم بناء، وأما النجار فأعظم نجار، وأما الحداد فأعظم حداد، وأما البلاط فأعظم بلاط، وأما القصار فأعظم قصار، وأما الدهان فأعظم دهان).

وتضيف الرسالة ذاتها كي تزيد من قوة الرمز:

(لعلي قلت لك قبل اليوم إني عزمت أن أسمي داري: الجزيرة، لأن الطرق تحيط بها من كل الجهات إلا من جهة واحدة، كما سميت جزيرة العرب، وهي شبه

جزيرة، وإني سأدعو كل غرفة باسم: هذه صنعاء، وهذه دمشق، وهذه قرطبة، وهذه بغداد، وهذه القاهرة. وأما اليوم فإني سأدعو أبواب الدار: الأبواب الدهرية، فمتى رجعت يا سري ظافرا غانما راقيا... أنشدنا مع المنشدين: انفتحي أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد).

ثم ينتقل السكاكيني وعائلته إلى (الجزيرة) في ٢٢-٥-١٩٣٧:

(اليوم انتقلنا إلى دارنا الجديدة، وهذه ستكون ليلتنا الأولى فيها...تم كل شيء ولله ولكل الأهل والأصدقاء الحمد).

حين نقرأ مثل هذا الكلام الآن، نحس كم أن السكاكيني- وكم أن النخبة بغالبيتها إن لم يكن كلها- كان غافلا عما يجري. إذ كيف يمكن بناء (جزيرة) مستقرة في بحر فلسطين العاصف المضطرب؟ وكيف كان يمكن إنشاء بيت في اللحظة التي كانت فيها الزلازل تعصف بأرض فلسطين كلها؟ لقد كان الأمر وهما بشكل ما.

هكذا كان الحلم يتشكل في دار ويتمثل بها، غافلا، بشكل ما، عن الزلازل والحرائق المقبلة. كان الناس، أو كانت النخبة ترى كل يوم المؤشرات على الحرائق والزلازل، لكنها لم تكن تدرك بعمق ما يجري، رغم أنه يجري كل يوم تحت أعينها. أو لعلها كانت مرغمة على أن تمضي في حياتها العادية رغم ذلك.

هكذا كان الأمر عند النخبة. لكن الحياة، حياة الناس في الأسفل، كانت تتجه نحو الانفجار. فقد كان يأس الفلاحين يتصاعد. فأرضهم مهددة بالضياع، وهم يعيشون بلا أمل تقريبا. وكانوا يحاولون أن يردوا على هذا الوضع ما استطاعوا بين الحين والحين. وحين بدا أن هذا الرد سيأخذ شكلا انفجاريا، فوجئت النخبة المثقفة مفاجأة كاملة. ولنأخذ ما كتبه السكاكيني عن حركة الشيخ عز الدين القسام المسلحة. فهو في الرسالة المؤرخة في ٢١-١١-١٩٣٥ يكتب لولده:

(ستقرأ في جريدة فلسطين بتاريخ اليوم خبر هذه الجمعية الإرهابية التي ظهرت في البلاد، ولا بد أن تكون قد سمعت بها لأن الراديو نقل بالأمس أخبارها إلى العالم. سمع الناس هنا أخبارها بين مصدق ومكذب. جمعية رئيسها شيخ معمم، وأعضاؤها من شيوخ البر يحملون السلاح في وجه الحكومة، إن هذا لأمر عظيم جدا. وسنرى ما يكون لها من أثر وما يتبعه من ذيول. ومهما يكن الأمر فلا بد أن العالم يعرف أن فلسطين لا تطاق، وأن الأمة العربية ليست لقمة سائغة، وسنرى).

شيخ معمم، يقود جمعيه من شيوخ البر يحملون السلاح في وجه الحكومة، إن هذا لأمر عظيم جدا!

إنه لأمر عظيم حقا! وقد ثبت أنه عظيم بعد أشهر أو أسابيع معدودات عندما حصل الإضراب الكبير، وانفجرت ثورة ١٩٣٦، التي كانت واحدة من أعظم المحاولات لعكس الحركة ودفع الإرادة في مواجهة القوى العاتية التي تقرر مصير فلسطين بعيدا عن رغبات أهلها، وضد وجودهم. وإذا افترضنا أن الشيخ المعمم، وجزءا من صحبه، كان يمثل الجزء من النخبة التقليدية، التي ارتبطت بالفلاحين ارتباطا واثقا، فسوف نرى بين نوعين من النخبة: النخبة الحديثة التي يمثلها السكاكيني، والنخبة التقليدية التي يمثلها الشيخ القسام. فواحدة تبدأ الكفاح بالسلاح وأخرى تنظر إليه مندهشة!

أما بيت السكاكيني، جزيرته، أو (الدار القوراء) كما كان يسميها على طريقة المصادر الكلاسيكية القديمة، فقد ابتلعته، كما نعلم، الموجة الصهيونية، ولم يعش فيه صاحبه سوى سنوات قليلة. لقد سلب من صاحبه، الذي رمي في المنافي بعد عقد واحد من بناء البيت. وبذا قد اكتمل الرمز، وحصل مع فلسطين تماما كما حصل مع بيت السكاكيني: فقد أغرقتها هي الأخرى موجة الهجرة اليهودية وابتلعتها، وأرسلت أكثر من نصف شعبها للمنافي.

كان السكاكيني يقيم بيتا له ولعائلته، لكنه، في الأعماق، كان يرسم رمزا لفلسطين كلها. وقد دمر الرمز والواقع معا، في لحظة واحدة.

وإذا كان السكاكيني وغيره قد أدهشوا بحركة الشيخ المعمم، فقد أدركوا بقوة أن الانفجار القادم من الأعماق نتج عن الضغط الصهيوني العنيف:

> (ومهما يكن الأمر فلا بد أن العالم يعرف أن فلسطين لا تطاق، وأن الأمة العربية ليست لقمة سائغة، وسنرى).

نعم، لقد جعلت الهجرة اليهودية من فلسطين بلدا لا يطاق بالفعل، لذا فقد ابتدأ الإضراب الكبير لعام ١٩٣٦، الذي تحول إلى ثورة كبرى. ومثله مثل كثير من المثقفين الحديثين نظر السكاكيني إلى الانفجار بعين الأمل، من دون أن ينسى الخوف والتشكك. يكتب في ٢٦-٥-١٩٣٦:

> (لست من أنصار الثورات، ولست أكره شيئا كما أكره أن يلجأ الناس في حل مشاكلهم إلى العنف والقوة، ولكن هذه النتائج من تلك المقدمات، والبادئ أظلم).

ويكتب قبل ذلك بشهر تقريبا، أي في ٢١-٤-١٩٣٦:

(أحرى بفلسطين أن تسمى بلد الثورات. لا تنقضي ثورة إلا ظهرت ثورة، وأعوذ بالله من الثورات، إن الحرب أهون من الثورات ألف مرة. الحرب يخوضها الجنود، وأما الثورات فكل الناس من كبار وصغار... الحرب لا يستعمل فيها إلا الرصاص، وما أهون الموت بالرصاص... وأما الثورات فما أكثر فظائعها، نمزق في الأجسام تمزيقا، تطحن طحنا، تدق دقا، تحرق حرقا، تخنق خنقا، تسحق سحقا. الحرب لها قوانين وأما الثورات فلا قانون ولا نظام).

ولا يستطيع أحد أن يلوم السكاكيني على الخشية من الثورات، رغم أمله فيها في اللحظة ذاتها. فقد خبر بلد الثورات كيف تنحل هذه الثورات والانتفاضات دوما، بعد أن تستطيل وتفشل في تحقيق أهدافها، إلى عنف داخلي مدمر ومرير. وقد شهدنا بأعيننا هذا يحدث من جديد في الانتفاضتين الأولى والثانية قبل نهاية القرن العشرين، وفي مطلع الذي يليه. كأن الأمر يتكرر. كأننا نكرر ذاتنا، ولا نتعلم من دروسنا.

لكن الأمل يتغلب على الحذر عند السكاكيني. يكتب بتاريخ ٧-٥-١٩٣٦:

(إذا كان الإنجليز أكبر دولة استعمارية، وإذا كان اليهود أصحاب هذا النفوذ الطويل والعريض، فجدير بفلسطين أن تفخر أنها تقاوم الإنجليز واليهود معا، فأين شوكتك يا إنجلترا؟ وأين نفوذكم يا يهود؟ ستسقط إنجلترا، ويسقط اليهود، والأمور مرهونة بأوقاتها).

وإن بدا لنا هذا التفاؤل ساذجا الآن، فقد كانت هذه هي الصورة عامة في فلسطين في ذلك الوقت. كما أن من عادة الأدباء حين يدلون بآراء سياسية أن يأخذهم الحماس فيتورطون في أحكام ساذجة بعض الشيء، رغم تحصلهم أحيانا على نظرات ثاقبة لا يملكها السياسيون. يكتب في ٢٣-٥-١٩٣٦:

(ليس هذا الصراع بين الحكومة والأمة، ولا بين العرب واليهود، وإنما هو صراع بين وايزمن والحاج أمين. فأصبرهما، وأسرعهما خاطرا، وأبعدهما نظرا، وأصلبهما عودا، كان النصر في جانبه. وأين وايزمن من الحاج سيد شباب العرب؟ كأن الحاج أمينا يقول لوايزمن: إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا).

من المؤكد أن الصراعات السياسية الكبرى، في أحد مستوياتها الأساسية، هي صراع بين قدرات القادة وطاقتهم. لكن من الواضح أيضا أن حكم السكاكيني كان حكما ساذجا من مثقف فلسطيني لا يملك معرفة كافية بالسياسة، ولا يعرف بالتالي طاقة قيادات العدو الحديثة وإمكاناتها. فمن الصعب أن نجد الآن من يمكن له أن يفاضل بين وايزمن والحاج أمين لصالح الأخير.

***

وإذ انتهى الزلزال بابتلاع دار السكاكيني القوراء، وبضياع فلسطين الحديثة كلها، فلسطين القدس الغربية والساحل، التي كانت ترمز لها (جزيرة السكاكيني)، فقد ظل الداخل الجبلي ليحمل عبء الحفاظ على الثقافة والهوية. لقد ضرب الجناح الحديث لفلسطين ضربة مؤلمة. وهكذا صار على الثقافة الفلسطينية أن تطير بجناح محافظ متين وجناح حديث مكسور. أي: أن تتغلب الروح المحافظة على الروح المنفتحة الحديثة، وأن تتغلب روح نابلس والخليل على روح يافا والقدس. وتعرض رسائل السكاكيني ويومياته فيضا من المواد التي تعرض لهذا الواقع. فهو يكتب، مثلا، في ١١-٣- ١٩٣٧:

> (ذهبت يوم الاثنين من هذا الأسبوع إلى نابلس ورجعت منها اليوم. لا أذهب إلى نابلس إلا شعرت أنني انتقلت إلى عصر الظلمات، وخيّل إليّ أن نابلس لم تسمع أن هناك كهرباء، وسينما، ومواسم تمثيل، ومجالس غناء، وملاعب تنس، ولم يدر في خلدها أن هناك فنونا وآدابا وفلسفات ومذاهب اجتماعية تتطور كل يوم).

وبالفعل فقد كان حظ نابلس من كل هذا ما يزال قليلا جدا. لم يكن هناك من سينما ولا مسارح ولا مجالس غناء ولا ملاعب تنس. كان مثل هذا متوافرا في يافا، وفي القدس إلى حد ما، لكنه كان غائبا إلى حد بعيد في نابلس. بذا فقد كانت الحياة الاجتماعية فيها عسرة ثقيلة. ومثل هذا يمكن أن يقال عن الخليل وطول كرم، وغيرها من المدن والبلدات. ويضيف السكاكيني عن معيشة أحد أقاربه في نابلس:

> (كنت أحب لو فتح عيادة في القدس وانتقل بأسرته كلها إليها، فإن المعيشة في نابلس وطول كرم معيشة رجعية. تقابل الناس في نابلس وطول كرم فتجد أن لهم لغة خاصة. يقولون لك: شرّفت، فتقول لهم: تشرّفت. وقد يختلط عليك الأمر فتستعمل هذه في محل تلك. إذا شربت ماء فلا بد لك أن تحمد الله قبل أن يقولوا لك هنيئا. وإذا عطست قالوا لك: رحمك الله. وإذا خرجت لقضاء حاجة ثم رجعت قالوا لك: شوفيتم. وإذا دار الحديث، وكل أحاديثهم عن الأكل والمرأة، ولا تخلو من تلميح وتعريض، فلا بد لك أن تقابل أحاديثهم بالاهتمام والابتسام ولو تقززت نفسك...وإذا ذكرت المرأة ولو كانت أمك أو أختك أو امرأتك فلا بد أن تجل قدر الحاضرين عند ذكرها).

ولم يكن السكاكيني الذي كتب رسائل الحب الجميلة في أول القرن قادرا على تحمل فكرة أن يقال: (أجلكم الله) عند ذكر المرأة. كان هذا فوق طاقته الخلقية.

وإذ هاجرت نخبة يافا والقدس الغربية وهُجّرت، فقد كان على ما تبقى من النخبة، وهي تتركز في نابلس والقدس الشرقية إلى حد ما، أن تحمل عبء الحفاظ على الثقافة والهوية. وقد قامت بذلك حقا، لكن بثمن أنها طبعت بطابعها المحافظ الهوية والثقافة معا. وما زالت الثقافة

الفلسطينية تتحمل عبء هذه البصمة المحافظة حتى الآن. وكلما حاولت أن تتخطاها، عملت المواجهات مع الاحتلال الإسرائيلي على تثبيتها. إذ حين يكون الصراع بهذا القدر من الجذرية، يكون هناك ميل للحفاظ على الأكيد والمضمون، أي المحافظ والقديم.

***

وإذا كان السكاكيني ثمرة جهد التحديث في القرن التاسع عشر، فقد كان ثمرة لغوية وخلقية بالدرجة الأولى. تمثلت هذه الثمرة في يومياته، التي تشمل رسائله إلى سلطانة في بداية القرن العشرين، ثم رسائله إلى ابنه سري في الثلاثينات من القرن ذاته. أي أن إنجاز السكاكيني الحق يكمن في اليوميات. فهي مختصر السكاكيني. وأظن أن علينا أن ننظر إليها على أنها شكل كتابي جديد مختلف ابتدعه السكاكيني، ولم يتابعه أحد فيه. فهي تختلف عن اليوميات العادية المألوفة، التي تكتب كي تظل سرا حتى الوفاة، أو حتى اقترابها. فقد كان صاحبها كان يعي وعيا شديدا أنه يكتبها للنشر في حياته. وقد نشر قسما منها بالفعل، أي كتاب (سريّ). وبذا فلم لم يكن يخجل من أي شيء ورد فيها، لا من رسائل حبه الملتهب العنيف لسلطانة ولا من غيرها. لذا فقد كان يبادر إلى قراءة أجزاء من يومياته في الحلقات الثقافية وحلقات الأصدقاء. لم يكن يكتب في السر ما كان يخشى من الإفضاء به في العلن. كانت مذكراته كتابا للنشر، لا بوحا في العتمة لما لا يمكن البوح به في النور.

هل أثر وعي السكاكيني بأنه إنما يكتب اليوميات للنشر على ما كان يتطرق إليه في هذه اليوميات؟ أي هل كانت فكرة النشر تكبحه وتمنعه من التعرض لمواضيع محددة في يومياته؟ ربما، لكننا لا نستطيع الجزم بذلك. بل لعل سيرته العملية تؤكد عكس ذلك. فقد كان الرجل يتعرّى أمام أصدقائه وزائريه في الحمام، كي يريهم فلسفته الاغتسالية. كان يفعل ذلك وهو ابن مجتمع محافظ، يرى في مثل هذا السلوك فضيحة. ويصعب علينا أن نظن أن من يتعرّى بهذا الشكل، سوف يضع قيودا كثيرة على كتابته يومياته لأنها ستنشر في ما بعد.

أكثر من هذا، فقد كان السكاكيني يحلم أن تكون رسائله إلى سري كتبا تدرس في المدارس. يقول في رسالة إلى سري في شباط ١٩٣٤:

> (اشتغلت في هذه العطلة بمراجعة مجموعة رسائلي إليك وتنظيمها بحسب مواضيعها لنشرها تباعا في إحدى المجلات، وإما مجموعة في كتاب برأسه بعنوان (سريّ المستقبل)، معارضة لكتاب جان جاك روسو الذي سماه (إميل القرن الثامن عشر).

عليه، فهي لم تكن يوميات عادية، بل كانت شكلا أدبيا جديدا يستند إلى الكتابة اليومية وإلى الرسائل. ويخيل إلي أن لم يفت الوقت لجعل أجزاء من هذه اليوميات في متناول المناهج المدرسية. بل لعل علينا أن نعمل بجهد كي ندخلها في المناهج. فما زالت إنجازا نثريا طازجا لم نتجاوزه بعد.

اليوميات والرسائل اليومية كانت الشكل الذي ابتدعه السكاكيني لعرض أفكاره وملاحظاته الاجتماعية وغيرها. وقد حاول في البد أن يسير في طريق الشعر لكنه لم ينجح فيه، فتركه. ومراجعة لما كان يكتبه من شعر ومن نثر في بداية القرن العشرين، توضح أنه كان في الشعر إحيائيا وفي النثر حداثيا. لم يكن قادرا على أن يدفع بالشعر في طريق الحداثة. لم يكن الزمن قد تهيأ بعد لتحديث الشعر جديا في فلسطين.

وقد قادت سلسلة من المصادفات إلى أن يكون السكاكيني لا غيره من يرسخ الحداثة اللغوية النثرية في فلسطين. وكانت أسعد هذه المصادفات أنه كان تلميذا، في (مدرسة الشبان) في القدس، لنخلة زريق الشخصية اللبنانية {وقتها كان زريق يرى نفسه سوريا عربيا} التي دفعت بدم الحداثة في عروق اللغة العربية بفلسطين. وإذا كنا لا نملك نماذج من لغة زريق، فإننا من خلال لغة السكاكيني، ومن خلال شهاداته عنه، نستطيع أن نتخيل ما فعلته هذه الشخصية المرموقة للغة العربية في فلسطين.

وإذا كانت فلسطين قد حظيت بهذه الشخصية المثيرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فاتحة الباب لتثوير الكتابة النثرية فيها، فإنها قد حظيت بشخصية لبنانية أخرى هي وديع البستاني الذي يمكن القول أنه وضع أسس الشعر الوطني الفلسطيني، وجعله قادرا على دخول المعركة إلى جانب الناس. وأظن انه لم يكن بإمكاننا أن نحظى بالأشعار الوطنية لإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبي سلمى، ثم محمود درويش من دون الانطلاق من وديع البستاني. يقول الدكتور عبد الرحمن ياغي تعليقا على دور البستاني:

> (ويتاح لفلسطين في أعقاب هذه المرحلة شاعر خصيب الوجدان، يقظ العقل، واعي الضمير... هو وديع البستاني). ويضيف أنه بواسطته (دخل الشعر ميدان المعركة...وأخذ يكشف للناس مواطئ أقدامهم، وينطلق معهم في كفاحهم)– حياة الأدب الفلسطيني، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية، ٢٠٠١، ص ١٧٤، ١٧٦–.

***

على كل حال، فإن السكاكيني الذي وجد شكله الكتابي الجديد المختلف، كانت تتنازعه دوما أشواق أن يملك رسالة فلسفية ما ينشرها ويدعو لها. أو قل أنه كان يتحرق شوقا إلى أن تكون له رسالة نبوية. وكان مثقفون كثيرون من بلاد الشام قد سحرهم نيتشه بكتابه (هكذا تكلم زرادشت). ويمكن رؤية صدى هذا الكتاب في (نبي) جبران، وفي غيره من الآثار. وقد ظل هذا السحر، في رأيي، قويا حتى الخمسينات. ولم يفلت منه حتى ميخائيل نعيمة في (مرداد). ونحن نعلم أن السكاكيني كان مولعا بنيتشه: (أنا مدين لنيتشه وأميركا. فأمريكا بحسب هذا التصريح علمته، في الفترة التي قضاها فيها عاملا، الكدح والقوة الجسدية. أما نيتشه فقد أعطاه فكرة القوة الجسدية.– وليس هناك، في نظري، ما يمنع أن أول تعرفه إلى نيتشه كان في أمريكا عبر فرح أنطون وجريدة (الجامعة)، ثم تعرف عليه أكثر في ما بعد–.

وكان يطمح في أن يكون له شيء يشبه ما فعله نيتشه، أو ما فعله المتأثرون العرب به: أي إلى رسالة ودعوة وفلسفة ما. وهو لا ينى يهدد، في يومياته، بأنه سوف يتوصل إلى فلسفة ويدعو إليها. إليها. يقول في١٦-٣-١٩٣٥:

(أنا الآن لست شيئا، ولكن لا بد أن أكون لنفسي رأيا أتبعه، وأدعو إليه، وأبشر به في القريب العاجل؛ إما الاشتراكية وإما الفوضوية، وإما النقابية).

وفي ٢٨-٣-١٩٣٥ يكتب لسري:

(إني أحس أن الوقت الذي أعلن فيه رسالتي قريب جدا). وبعد ثلاثة أيام يكتب لسري أن نخبة من الشبان زارته وأنهم قرروا معا أن يشكلوا جمعية باسم (إخوان الصفا): (غرضها أن ندرس معا لنضع لنا رسالة مبنية على العلم نعيش لها ونبشر بها).

وهو يكرر مثل هذا مرات عديدة في يومياته. ويحس قارئ السكاكيني الآن بقد لا بأس به من السذاجة في إعلان السكاكيني أنه لا بد له من العثور على رسالة ما: اشتراكية أو فوضوية أو نقابية! فالمهم ليس مضمون الرسالة، بل وجود رسالة، أي رسالة كانت! فقد كانت تلك الأيام أيام (موضة الرسالة). كان لا بد لكل كاتب كبير من رسالة ما. كان لا بد له أن يختفي وراء (زرادشت) ما، (نبي)، أو (مرداد) يهبط من قنة الجبل لكي ينشر رسالته وتعاليمه. وما لم يتمكن من فعل ذلك يظل كاتبا من الدرجة الثانية في ما يبدو.

لكن السكاكيني لم يكن رجل نظريات ورسائل فلسفية. كان رجل عمل؛ يبني مدارس، ويؤلف كتبا تبدأ ب (راس... روس)، ويحدّث اللغة بشكل عملي، كي تكون نافعة للاستعمال. وحتى حين أخذ شيئا من نيتشه فقد أخذه من الناحية العملية. فالاحتفال بالجسد القوي عند نيتشه، تحول إلى احتفال عملي عند السكاكيني، إلى عرض مدهش لتمارين الاغتسال والنظافة والمشي. أما (الوحش الأشقر) النيتشوي المفترس فتحول إلى عند إلى قوة عضلية، بسياج أخلاقي صارم، في الوقت الذي كان وحش نيتشه يسبح في عالم ما بعد الأخلاق. لم يكد لدى السكاكيني طاقة نظرية أو شعرية عالية كي يكتب مثل (هكذا تكلم زرادشت). عليه، فقد حول الفلسفة إلى عرض عملي.

كذلك لم تكن عند السكاكيني طاقه شعرية تهويمية كي يكتب (النبي) أو (مرداد). لكل هذا، فقد كان أسهل عليه أن يحول الفلسفة إلى رياضة ونظافة، وإلى نظام حياة أخلاقي: يكره ضعف الناس وخنوعهم وتواكلهم وكل ما في حياتهم الباطنية والخارجية من قذارة وبشاعة، على حسب ما قال ميخائيل نعيمة في وصفه لتأثير نيتشه على جبران.

ويمكن لي أن أقول أن التفكير بغرم السكاكيني بالمتنبي ربما ساعدنا على توضيح منظومة السكاكيني الأخلاقية والفلسفية. فقد بدا له أن المتنبي يمثل الروح التي يريد بثها في فلسطين؛ روح القوة والعصمة، روح الفردية العميقة التي تتعالى حتى على من يمدحهم.

فوق هذا، فقد كان التدفق النظيف، السلس، السهل، للغة المتنبي يتوافق مع ما يريده من اللغة العربية. كان يريدها فياضة بلا تكلف، سلسلة بلا تصنع ولا تقعير، ونظيفة تتوافق مع نظافة بدنه. لذا تراه يستشهد في كل مكان من يومياته بأبيات المتنبي. وهي استشهادات لا تتوصل، في رأيي، إلى ما عند المتنبي من شاعرية، بل إلى ما عنده من حكم تضرب قريبا من حكم السكاكيني العملية.

وقد ربط السكاكيني، كما ربط غيره في ذلك الوقت، بين نيتشه والمتنبي. لكن السكاكيني وجد أن الربط يتمثل في فكرة القوة والجرأة الروحية عند الاثنين، لا في فكرة التشاؤم التي رآها البعض مشتركة بين المتنبي ونيتشه. فقد كان السكاكيني متفائلا بطبعه، ومنذ البدء. يقول في وصية له كتبها عام١٩١٧: (ولما كان لا بد للإنسان من صبغة فلسفية فأحب أن تكون فلسفة سري السرور). لكن هذا التفاؤل تحطم إلى حد ما بعد غياب سلطانة، بالطبع.

ولعلنا نستطيع أن نقسم تياري النثر الفلسطيني في الثلث الأول من القرن العشرين إلى تيار المتنبي وتيار بديع الزمان الهمداني. فقد أعجب السكاكيني بالمتنبي وأعجب إسعاف النشاشيبي ببديع الزمان. يخبرنا السكاكيني في (كذا أنا يا دنيا) أنه، في بداية القرن العشرين، وبعد دستور ١٩٠٨ العثماني: (كنا نحن الثلاثة على اتصال مستمر. وكان إسعاف ببديع الزمان ينسج على منواله، وكنت أنا مولعا بأبي الطيب، وكان حنا العيسى مولعا بالأصمعي، فتوزعنا كنى هؤلاء الثلاثة: أما إسعاف فكنيناه أبا الفضل، وأما أنا فكان نصيبي كنية المتنبي وهي أبو الطيب، وأما حنا العيسى فكنيناه أبا سعيد، وهي كنية الأصمعي).

وإذ فشل حنا العيسى في أن يمثل تيارا، فقد استقطب السكاكيني (=المتنبي) والنشاشيبي (=بديع الزمان) الحياة الأدبية في وقتهما؛ الأول ممثلا للحداثة التي تأخذ من تدفق المتنبي وصفائة مثالا لها، والثاني ممثلا للإحيائية، التي تحاول أن تعيد إحياء اللغة العربية القديمة، من دون أن تشتقها من الحياة، وأن تجعلها على تماس مع لغة الناس.

وكان الصراع بين الاتجاهين، في البدء، يتم بأقنعة المتنبي وبديع الزمان. لكن السكاكيني تخلى عن الأقنعة، في ما بعد، وصار ميالا إلى لغة أشد ارتباطا بالحياة. وقد حافظ على ذلك، ولم يرتكس عن حداثته. في حين أن النشاشيبي صار، مع الزمن، أكثر قربا من أصولية ما، جعلته يبتعد حتى هن شيء من جديد شبابه.

في كل حال، فقد ظلت أحلام (الرسالة) تطارد السكاكيني دوما، لتظهر أحيانا في شكل دعوات ساذجة مثل (دعونا ننقرض)، أو غيرها من الدعوات. لم يكن السكاكيني يدرك أنه كان ينجز رسالته على الأرض عبر لغته المجسدة في اليوميات، وعبر كتاب (الجديد) للقراءة. كان يحلم بالوصول إلى رسالة أخرى موعودة، يهيئها له المناخ الأدبي في عصره. وقد غادر من دون أن يتمكن من الوصول إليها. لقد عاش ومات إنسانا حرا ونظيفا، لا نبيا. ويمكن للمرء أن يتساءل الآن بحق، عما إذا كان مرداد ميخائيل نعيمه أهم من يوميات السكاكيني. بل لعل من حقه أن يتساءل إن كان (جديد) السكاكيني أقل أهمية من (نبي جبران).

وقد عاش السكاكيني كي يرى نفسه يخسر كل شيء في حياته: بيته، وبلده، وما كان يراه ثمرته العظمى، ثمرة لغته ومبادئه الأخلاقية: سريّ، وزوجته، بل وحتى تسلسله البيويولوجي.

إذ أن ابنتيه، دميه وهالة لم تتزوجا. ومن المثير أن هالة تنبأت بذلك في طفولتها. إذ يذكر السكاكيني في هذا الجزء من رسائله هذه القصة: (كنا نتكلم مع الخالة نجلا والعمتين، فقلت إن خليل لن يزوج دمية وهالة إلا لرجل يصدق ويؤمن أنه أحسن منه، فقالت هالة: لا نتزوج إلا إذا نزل المسيح إلى الأرض). ولأن المسيح لم ينزل حتى الآن، فقد غادرتا الحياة من دون زواج، وبذلك فقد السكاكيني إمكانية تسلسله البيولوجي.

لكنه تسلسل بنا جميعا في فلسطين – وفي بلدان عربية أخرى فقد دخل كتابه (الجديد) في مناهج عدة دول عربية– عبر يومياته وعبر (الجديد). فالأجيال الحالية في فلسطين ابنة لغة السكاكيني في يومياته، وابنة كتاب القراءة للصفوف الابتدائية، بأجزائه الأربعة: الجديد. كل واحد منا يحمل جزءا من بصمته اللغوية، وعى ذلك أم لم يعه.